جامعة واسط
مجلـــة كليـــة التربيـــة

العـــــدد السابع والثلاثون
الجزء الثاني/ تشرين الثاني / ٢٠١٩

المنهج التاريخي عند الدكتور عبد العزيز الدوري
دراسات في العصور العباسية المتأخرة أنموذجاً.

م.د. علي فرحان زوير
المديرية العامة لتربية بابل
alifarhanzweer@gmail.com

المقدمة.

تم تناول الوقائع التاريخية من لدن المؤرخين، وقد تناولت ضروب التناول من حيث الدقة والتحليل ومن حيث الشمولية والرؤية من زاوية واحدة، ويسعى هذا البحث الى الوقوف على جهود الدكتور عبد العزيز الدوري، أي التحوّل من دراسة الحوادث التاريخية الى دراسة المؤلفين فيها، وسيشدد البحث على المنهج التاريخي عنده، وكيف تسنى له معاينة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، منصرفين الى كتابه" دراسات في العصور العباسية المتأخرة" الذي عمدنا من خلاله الى اقتراح ثلاثة مباحث سُبقت بمقدمة وشفعت بنتائج، أما المبحث الأول فقد عُقد لدراسة الأوضاع السياسية في منهجه، وأما المبحث الثاني فقد خاض في أثر الأوضاع الاقتصادية في ثورة الزنج، بينما انهمك المبحث الثالث في تمثلات الكتابة التاريخية والاجتماعية عند الدكتور عبد العزيز الدوري، وقد تجلت الصعوبات في أن الدوري اعتمد على الاستنباط والاستقراء اقامة لمنهجه،

الكلمات المفتاحية: عصور عباسية ، الكتابة التاريخية الاجتماعية ، الاوضاع السياسية

جامعة واسط
مجلـــة كليـــة التربيـــة

العـــــدد السابع والثلاثون
الجزء الثاني/ تشرين الثاني / ٢٠١٩

The historical approach of Dr. Abdul Aziz Al Duri .Studies in the late Abbasid period are a model

Research prepared by Dr. Farhan Zuair
Directorate General of the Education of Babylon

Abstract

The historical facts of the historians have been dealt with in terms of accuracy, analysis, comprehensiveness and vision from one angle. This research seeks to identify the efforts of Dr. Abdul Aziz Al-Douri, that is, the shift from the study of historical events to the study of the authors. The historical approach has, and how it was able to preview the political, economic and social conditions, we include in his book "Studies in the late Abbasid times," through which we proposed to the three pre-foreword and the results of the introduction, and the first topic was held to study the political situation in its methodology, What the second topic has fought in the impact of economic conditions in the Zinj revolution, while the third section engaged in representations of historical and social writing when Dr. Abdul Aziz al-Douri, has demonstrated the difficulties that the league was adopted on the establishment and deduction of his method,

Abbasid ages , Historical Social Writing , The political situation

المبحث الأول: الأوضاع السياسية في منهجه.

يعدّ كتاب الدكتور عبد العزيز الدوري" دراسات في العصور العباسية المتأخرة" من الكتب التي قسّمت منهجيّاً الى ثلاثة محاور خاضت في الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكان التقسيم ضمنيّاً لم يشر اليه في مباحث وعناوين مستقلة، إذ أن كل دراسة كانت تقف على هذه المحاور، فعنده" لا تكفي دراسة جزء من المجتمع دون جزء، ولأن أجزاءه قد تكون متلائمة تسير في اتجاه واحد، أو متنافرة متضاربة، ولا يمكن فهم المجتمع في كلا الحالين ما لم يدرس بوصفه وحدة كاملة، (١) فهو يرى أن النسيج الداخلي هو المعول عليه في الفهم، صحيح أننا قادرين على ملاحظة الحركة التاريخية عبر تمثلاتها العديدة (الانقلابات والثورات) ولكننا بحاجة ماسة الى فهم الأسس الاجتماعية والاقتصادية والنفسية لهذه الحركات والتطورات كي نستطيع فيما بعد تشكيل المنطوق التاريخي الخاص بها، إذ أن عملية كتابة التاريخ تنتمي جانبيا الى الأسس غير التاريخية للحادثة التاريخية. (٢) ولأن" البحث فن الخطوات" (٣) آثرنا أن نقف عند كل محور من هذه المحاور ونجمعها في حيز واضح وبيّن تيسيراً لتلقيها من لدن الدارسين.

ولا شكّ بأن الدكتور عبد العزيز الدوري اهتم بالتاريخ الاقتصادي منذ بواكير حياته العملية فهو يرى أن موضوع التاريخ موضوع حي، ولذلك ينتظر أن تختلف الآراء حول مفهومه، وأسلوب كتابته وتفسيره، هذا فضلا عن انه موضوع يتصل بصورة وثيقة بالاتجاهات الفكرية والتطورات العامة من سياسية واجتماعية، فيتأثر بها وقد يكون له أثره في بعضها، ويؤكد بان ثمة صلة بين المؤرخ وحقائق التاريخ، فالمؤرخ من دون حقائق لا جذور له والحقائق من دون مؤرخ مجردة من الحياة والمعنى. (٤)

ويذهب الدكتور الدوري الى أن المؤرخين العرب القدامى قدموا تفاسير عديدة للتاريخ العربي وللتاريخ البشري كله، فهناك من رأى أن التاريخ تعبير عن (المشيئة الإلهية) المتمثلة بتوالي الرسالات، وهناك من قال أن التاريخ تعبير عن دور (النخبة) . وفسر آخرون التاريخ تفسيرا أخلاقيا، وأخيرا جاء عبد الرحمن بن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي ليفسر التاريخ تفسيرا حضاريا اجتماعيا، ويضيف الدوري الى ذلك قوله ان (التفسير الاقتصادي) لا يعني بالضرورة (التفسير المادي) ومع أنه

كان يدرك بأن البعض من المؤرخين ذهبوا في كتاباتهم الى التركيز على (الوعي القومي) و(النزعة القومية) وحتى هو نفسه اتهم بذلك إلا أنه في نهاية الأمر لا يحبذ الالتزام بـ (فلسفة تاريخية معينة وتطبيقها على التاريخ) فالفلسفات التاريخية برأيه رهينة بظروف نشأتها وقد يؤدي تطبيقها الى قسر التاريخ ليماشيها والى إخراجه عن نطاقه، فنحن كما يقول الدوري(حين ندرس تاريخنا نريد فهمه وبالتالي تكوين فكرة واضحة عن جذور حاضرنا، وفهم امكانياتنا وتقدير دورنا في سير البشرية) (٥)

ويذهب الى أن مثل تلك الدراسة تتطلب لتكون جدية، توفر عناصر عديدة؛ منها أن لا تكون دراسة خارجية أي من قبل أناس من خارج المجتمع العربي، وأن ندرس تاريخنا بروح النقد والتفهم في آن واحد، ومعنى هذا انه لا يريد إضفاء القدسية على هذا التاريخ فهو تاريخ بشر، وأخيرا يؤكد الأستاذ الدوري على أن التاريخ العربي عج بالتيارات والاتجاهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والنفسية وقد مر بفترات توثب وفترات ركود .

وبذلك تمتع الأستاذ الدوري بمكانة متميزة حتى انه لقب بـ (شيخ المؤرخين العرب) كما نال الكثير من التكريم وقد قال عنه المؤرخ البريطاني المتخصص بتاريخ الشرق الأوسط ، برنارد لويس (انه أي الدوري أصبح حجة في موضوعه .. بل هو نفسه قد غدا وثيقة تاريخية) ليظل الأستاذ الدكتور الدوري ، بحق ، رائدا من رواد التحليل التاريخي الاجتماعي كما يقول الدكتور غانم الرميحي، ومن البحوث التي ضمها الكتاب، بحث المرحوم الأستاذ الدكتور صالح احمد العلي الموسوم: (الدكتور عبد العزيز الدوري : سجاياه الأصلية وعمله) وبحث الأستاذ الدكتور فاروق عمر فوزي الموسوم: (محاورة منهجية حول مساهمة الدوري في تفسير التاريخ العربي الإسلامي في ضوء التفاسير التاريخية) وبحث الدكتور مسعود ظاهر الموسوم: (مساهمة الدوري في تطوير الفكر العربي) (٦)

وفي يوم الجمعة ١٥ كانون الأول ٢٠٠٠ منحت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم جائزتها التقديرية للثقافة العربية للمؤرخ الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري لجهوده في دراسة الفكر القومي

وجذوره التاريخية ولتأكيده على إبراز علاقات الشعوب العربية بالأمم والشعوب والثقافات الإسلامية، ولاهتمامه بدراسة النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الحضارة العربية والإسلامية. (٧)

كل ذلك يشير الى طبيعة منهج الدكتور عبد العزيز الدوري الذي لا يشدد على جانب على حساب آخر، ولا ينحاز الى قضية معينة مهملا القضايا الأخرى التي تشكل في مجملها الدراسات التاريخية الرصينة، وقد عمد الدكتور عبد العزيز الدوري في كتابه" دراسات في العصور العباسية المتأخرة" (٨) الى اعطاء توصيف واف عن الوضع السياسي في الفترات التي تناولها في كتابه، فهو يقدّم بسطاً سريعاً للوضع السياسي للفترة التي تسبق الفترة الزمنية التي يدرسها وعلامات الضعف التي اعترتها وهيّأت للاحق من العصور والخلفاء والثورات كما شأنه مع الواثق والمتوكل وفترة التسع سنوات ومن تعاقب على الحكم فيها، فضلا عن ثورة الزنج والامارات الفارسية: الطاهريون والصفارون والسامانيون والقرامطة...الخ

قدّم الدوري الآراء التي قيلت في الواثق كما هي بادئ الأمر على نحو:

" أما نظرة المؤرخين الى الواثق فمختلفة ومتباينة كل التباين، فمنهم من يتطرف في ذمه له تطرفاً كبيراً لتعصب الواثق الديني وطمعه متناسين مزاياه الأخرى، ويضرب مثلا على ذلك قول ميور" انه كان ضعيفاً وغير رشيد في ادارته" ويقول زترشتين فيه" انه خلو من مزايا الحكام وانه كان رجلا طماعاً متعصباً منغمساً في الملاذ" ويورد آراء أخرى تناقض ما مر من آراء على نحو قول أمير علي: كان الواثق رغم افتراء بعض الكتاب المتعصبين حاكماً ماهراً كريما صبوراً، واسع المعروف لم تشب اخلاقه شائبة على الرغم من حبه للمجون" (٩)

وهنا يرد رأي الدكتور عبد العزيز الدوري ليقف قارئاً موضوعيا ليقول في الواثق والآراء التي قيلت فيه:

" وسنرى أنه لم يكن هذا ولا ذاك، وأن شخصيته في حياته الخاصة هي غيرها في حياته السياسية" وبذلك يفك اللبس الناتج من الآراء المتطرفة المنحازة أو المتحاملة الأمر الذي تتأباه الدراسات العلمية وتتجنب الوقوع فيه.

وقف الدوري على سياسة الواثق، والمح الى سياسته المتأثرة بمن سبقه، اذ يقول معتمدا على الوثائق التاريخية:

" كانت سياسته استمراراً لسياسة عمه وأبيه، فكان يحب الاعتزال ويبغض التقليد وأهله ويشجع نشر العلوم بين الناس، اقتفى أثر عمه في الاعتزال، وتشدد في ذلك حتى أنه أمر سنة ٢٣١ هـ بامتحان أهل الثغور فلما رفض أربعة منهم أن يقولوا بخلق القرآن ضرب أعناقهم (١٠) ولما جرى الفداء سنة ٢٣١ هـ افتدى من الأسرى المسلمين من قال بخلق القرآن فقط" (١١)

إن الشواهد مارة الذكر تؤكد مغالاة الواثق واضطهاده غير المعتزلة فاستحال هذا الأمر الى معول يهدد الوضع السياسي من خلال السخط الذي خلّفه، ويورد الدوري بهذا الصدد رأياً للمسعودي مفاده أن الواثق:

" شغل نفسه بمحنة الناس في الدين فأفسد قلوبهم وأوجدهم السبيل الى الطعن عليه" (١٢)

وهكذا نرى أن الدكتور عبد العزيز الدوري يشدد على الجوانب التي أثرت على الحياة السياسية وأوضاع سيرها ابان حكم الواثق، فهو:

لا ينقل الواقعة التاريخية من أجل النقل والتوثيق فحسب إنما يروم من خلال ايرادها الاشارة الى ما ستخلفه تاليا من مؤامرات وحركات سرية، ولا غرابة بعد ما أسس الدوري كما تقدّم أن يقول رابطا النتائج بمسبباتها:

" وسرعان ما أدى تشدد الواثق الى قيام حركة ضده في بغداد سنة ٢٣١ هـ يحمل لواءها أصحاب الحديث ومن ينكر القول بخلق القرآن، ويقودها أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم الخزاعي" (١٣)

إن الدوري لم يغادر الوضع السياسي في حديثه عن هذه الحقبة الأمر الذي يؤكد أن منهجه يأتي تباعا على نحو خطوات بحثية محسوبة، فمن انحياز الواثق الى الاعتزال ينتقل الدوري الى سياسة الواثق في الحياة العسكرية، وكان الدوري يستعين بلفظ " سار" الواثق على خطى أبيه في تقريب الأتراك، و اقتدى بالمأمون في سياسة التسامح مع العلويين وأحسن اليهم وبالغ في اكرامهم ومنحهم الأموال" (١٤) الأمر الذي يعني أن الدوري يؤشر تبعية الواثق لغيره في سياسته للدولة حكمذاك، وأشار الى بعض الاضطرابات في خلافته التي تدل على ضعف الحكومة المركزية أو اهمالها لهوامش الدولة وحدودها، فقد تغلبت فزاره ومره على فدك سنة ٢٣١هـ فأرسل اليهم حملة فهزموا في الشام، وهكذا بين اضطراب وهدوء نسبي الذي كان نتيجة لتعاظم نفوذ الترك لدرجة جعلت المتوكل

يفكر في تقليله، هذا النفوذ الذي تحول الى صراع بين الخلفاء والترك وكان يأخذ طابع الخفاء تارة والعلن أخرى فتفاقمت الأزمات وبدأت عمليات الانفصال بعد أن أصاب الدولة الافلاس المزمن.

وبذلك نلاحظ أن الدوري يهيّئ منهجيّا وتاريخيا للوضع السياسي في زمن المتوكل الذي سُبق بتدخل الترك في تولية هذا وتنحيته حتى آل الحكم اليه، آخذين في الحسبان استمرار دعوات المؤلف الى ضرورة المحافظة على النظرة الشمولية بالنظر لأهميتها كما يرى في الدراسات التاريخية الحديثة.

وإذ وقفنا على الأوضاع السياسية في تناول الدكتور عبد العزيز الدوري لهذه الحقبة لم نعدم اشارات الى الأوضاع الاقتصادية التي قسّمها الى أدوار، الأمر الذي سنخوض فيه في المبحث الثاني الموسوم بـ أثر لأوضاع الاقتصادية في ثورة الزنج.

المبحث الثاني: الأوضاع الاقتصادية في ثورة الزنج.

الاقتصاد عصب حياة المجتمعات والدول، ولئن كانت العمليات الاقتصادية تجري عفواً على غير منهاج ولا تخطيط في المجتمعات القديمة، فإن الدول الحديثة باتت تعتبر الاقتصاد من أهم الركائز التي تقوم عليها بنيانها؛ فلكل دولة منهاجها الاقتصادي وخططها التنموية التي تقوم على دراسات علمية دقيقة، تدأب على مراجعتها وتطويرها بين الحين والآخر، ولطالما كان لرخاء الأوضاع الاقتصادية سبب رئيس في استتباب الوضعين السياسي والاجتماعي وهناك من المفكرين مَن قرن بين الثراء الاقتصادي والثراء الفكري.

ولقد كان الإسلام سباقاً إلى رسم منهاجه الاقتصادي، الذي أقامه على أسس عامة وخطوط رئيسية، وترك تفصيلات هذا المنهج إلى التطور العلمي والحاجات المتجددة للمجتمعات الإسلامية، ولئن لم يأخذ المنهج الاقتصادي الإسلامي أبعاده الكلية الكاملة خلال العصور المنصرمة، فذلك راجع إلى قصور الحكومات الإسلامية المتعاقبة، وانحرافها عن الإسلام الأصيل بشكل عام، وعن المنهج الاقتصادي النابع عنه بشكل خاص؛ جهلاً بدقائقه وأسراره، وميلاً مع شهوات الحكام الجور، وتلبيةً لمصالح الملتفين حولهم والمنتفعين من أنظمة حكمهم، ولا غرابة أن نجد الثورات تقوم معقودة الأسباب بالظلم واحتكار الأموال بيد أقلية وتجويع السواد من الناس وقهرهم، فمن أهم مزايا دراسة التاريخ _ على رأي الدكتور عبد العزيز الدوري تنمية ملكة النقد وتوسيع أفق التفكير من جهة، وملاحظة عوامل

التقدم والتدهور في المجتمعات ومواطن القوة والضعف فيها ومعرفية نفسية الأمة وأثرها على تطورها من جهة أخرى. (١٥)

وسنتخذ من ثورة الزنج أنموذجاً للأثر الاقتصادي في قيامها، حركة الزنج (١٦) كما يدل اسمها هي ثورة العبيد في وجوه أسيادهم مستهدفين من ذلك رفع منزلتهم وتحسين وضعهم بعد أن نظمهم رجل ادعى النسب العلوي وبثّ فيهم دعاية لم يألوفها من قبل لكنها اتفقت وروح العصر الذي عاشوا فيه، كما اتفقت ومعاناتهم في العيش وانعدام المقومات التي تكفل للانسان العيش الكريم. (١٧) لذا على الدولة أن توفر للإنسان مقومات العمل المنتج من صحة وأمن وعلم ومعنويات قوية ووسائل عينية كافية، فالإنسان المريض لا يتمكن من الإنتاج لكثرة غيابه عن مكان عمله، ولضعفه عن الإنتاج في حال حضوره، والإنسان الجاهل لا يعرف كيف ينتج والإنسان في حالة الخوف لا ينتج حيث أن فكره مشغول فينصرف بدنه عن الإنتاج متابعةً لفكره فيما هو مشغول به من الخوف، والإنسان صاحب المعنويات المنهارة – ليأس ونحوه – لا يتمكن من الإنتاج؛ فالشعب الذي يقع تحت الاستعمار أو الإكراه وغير ذلك لا ينتج شيئاً يذكر، لأنه يرى نتيجة عمله تذهب إلى غيره، أما وسائل العيش فمن الواضح أن العامل الذي لا يملك المسكن والأسرة ووسائل الرفاه، لا يقدر على العمل مثل العامل الذي يجد كل ذلك. (١٨) لذا يشدد الدوري على أن التاريخ ليس توقيت الحوادث أو دراسة الشخصيات بل هو موضوع حي يصور لنا حياة الأمة وتدرجها، ولأن الحياة متعددة النواحي متشعبة؛ فعلى المؤرخ دراسة المجتمع من مختلف نواحيه الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية وتحليل تركيبه الاثنولوجي، وبيئته الطبيعية وأن يدرس هذه النواحي بعضها بضوء بعض مشتبكة، مؤثرة ومتأثرة. (١٩) الأمر الذي يؤكد طبيعة منهجه المتحرك في دراسة الوقائع التاريخية وتحليلها، لاسيما فيما آثار وعرض من آراء في ثورة الزنج (٢٠) التي سنجد أن للأوضاع الاقتصادية أثراً كبيراً في قيامها، فلم يكن استخدام العبيد في المزارع بالأمر الجديد الذي يلفت الانتباه، وانما المهم ملاحظة ظهور بعض الاتجاهات والأوضاع الجديدة في هذا العصر، فقد شهد القرن الثالث الهجري_ نتيجة لتحول المجتمع من طور زراعي الى تجاري_ نشوء طبقة من المثرين ذات رؤوس أموال عظيمة تستخدم من الرقيق عدداً كبيراً، ونتيجة لذلك ظهر نوع جديد من التمركز في العمل، كوجود آلاف من الرقيق يشتغلون في محل واحد، وظهرت دعاية جديدة واسعة النطاق متسترة باسم العدالة الدينية ولكنها في الحقيقة ليست الا تأكيداً قويا على تحسين الوضع المالي والاجتماعي للطبقات العامة. (٢١)

آخذين بالحسبان افراد دراسة من لدن الدكتور عبد العزيز الدوري وسمت بـ دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي تعني في ما تعنيه عنايته بالتاريخ الاقتصادي بالنظر لعلاقته الوطيدة بالأوضاع السياسية والاجتماعية هذا الثالوث قوي العرى ببعضه على مدى تاريخ البشرية وتاريخ تطورها ونكوصها، الأمر الذي يؤكد رؤيته المنهجية المتكاملة التي من خلالها يؤسس لمنهج علمي يتم من خلاله تناول المادة التاريخية على وفق ضوابط وقواعد منهجية محددة الأطر والأهداف والغايات تمثل بمجلها الاطار العام الذي يسعى من خلاله الى تحليل الحدث التاريخي وتفسيره.

اتفقت المصادر على أن عدد الثوار كان كبيراً وانضم الى مَن في البصرة زنوج من الصومال فضلاً عن الهاربين الأبّاق من القرى المجاورة تخلصاً من وضعهم السيئ وهرباً من الضغط الشديد الذي ينوؤون بثقله (٢٢) فقد وجد هؤلاء شراكة بينهم والعقد الذي جمعهم فيه هو الظلم، فقد اقتصرت أجورهم على قوت قليل من الطحين والتمر والسويق، الأمر الذي جعل أي وعد بتحسين وضعهم المعاشي اغراء كبيراً لهم. (٢٣)

لقد كان المحرض على الثورة هو السياسة الاقتصادية أولاً، أما زعيمهم المعروف بصاحب الزنج فقد أفاد من هذه السياسة واستثمرها ولا غرابة أن يقف فيهم خطيباً ذاكراً ما كانوا عليه من سوء الحال وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم ويملكهم الأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور، وهكذا عمد صاحبهم الى اغتناء روح اليأس التي أدت الى التمرد والثورة، وهو لم ينس أن يلبس دعواه وحركته ثوباً دينياً على الرغم من أن قسماً عظيماً من الزنج كانوا برابرة، ولا يملكون أي ثقافة. (٢٤) فقد بشر بمبدأ لزوم خلافة أفضل المسلمين ولو كان عبداً حبشياً، وقد صرح بذلك المسعودي بقوله:

إنه كان يرى رأي الأزارقة، فكتب على لوائه" إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله" (٢٥) وهكذا كانت حركة الزنج متلونة بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي نشأت في خضمّها التي كان الدكتور عبد العزيز يأتي عليها كل في موضعها ومناسبتها وموقعها من الحوادث والمواقف، يرصدها ويرصد تفوهات صاحبهم التي كانت تضرب في صميم حاجاتهم وعوزهم، ويعتبر يوم الاثنين السادس من أيلول ٨٦٩ م يوم قيامه بالثورة، إذ خطب في أتباعه وعاد فمناهم ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال، ثم خطبهم خطبة ثانية يوم عيد الفطر ووعدهم بتحسين حالهم وأنهم سيمتلكون الأموال والمنازل، وبذلك نلاحظ أن صاحبهم كان يشدد على

تحسين حالهم وهو آية قيام الثورة ومبررها الأساس وغايتها الرئيسة، ولا ننس أن بعض الأعراب الساخطين على الخلافة حالفوا الزنج وقاتلوا معهم، ففي سنة ٢٥٧هـ ساعد بعض الأعراب الزنج في الهجوم على البصرة، وفي سنة ٢٥٨هـ عاث الباهليون في البطائح فصلب رئيسهم" فانضم باقي رؤسائهم الى الزنج (٢٦) فاستقطبت ثورة الزنج بذلك كل المتذمرين مما آلت اليه الأوضاع الاقتصادية، ففي سنة ٢٦٦هـ انتهب الأعراب كسوة الكعبة ثم صار بعضهم الى صاحب الزنج، ويمكن ملاحظة أن القليل من أصحاب الحرف في المدن اشتركوا مع صاحب الزنج.

ولم تنكسر شوكت الثورة حتى اهتم الموفق بفرض حصار اقتصادي على الزنج لأنه رأى ذلك أنجع طريق للقضاء عليهم، وقد حاول صاحب الزنج اختراق الحصار الاقتصادي وتهديد تموين الموفق فأسرع الموفق بارسال فرقة للقضاء على محاولته فصارت أعداد من الزنج تهرب وتستأمن الموفق. وهكذا انتهت حركة الزنج بعد أن تركت وراءها آثاراً فضيعة من التدمير والتخريب، ولعل أهم ما فيها الروح الطبقية التي اتصفت بها، والدور الكبير الذي لعبته الحرب الاقتصادية خلالها، وانكشاف ضعف الخلافة وقواها الكامنة في وقت واحد. (٢٧)

يتجلى واضحاً أن سبب قيام ثورة الزنج عوامل اقتصادية لم تحسن الخلافة وقتذاك سياستها فاغتنمها المغتنمون لاسيما صاحب الزنج، وأن العامل الاقتصادي هو السبب الرئيس في انتهائها، ولذلك أشار الدكتور عبد العزيز الدوري بقولته:

" انكشاف ضعف الخلافة وقواها الكامنة في وقت واحد" (٢٨) فضعف الخلافة تجلى في اهمال الأوضاع الاقتصادية للعامة، أما قواها الكامنة ففي اعتماد الحصار الاقتصادي لقمع الثورة.

المبحث الثالث: تمثلات الكتابة التاريخية الاجتماعية عند الدكتور عبد العزيز الدوري.

لا بد من الوقوف على مقدمة كتاب الدوري" دراسات في العصور المتأخرة" بالنظر لقيمتها المعرفية في مجال صناعة الأطروحة، وكأنه بذلك يستنفر معرفياته ليبثها فيها ليجعلها نصاً مفتاحيا تقوم عليه تالياً جملة من التوصلات العميقة التي تربط التاريخ بعلم الاجتماع كما سيرد. فببساطة شديدة يستطيع قارئ كتاب الدكتور عبد العزيز الدوري أن يقرر حقيقة مهمة وهي ضرورة التأكيد على معرفية المقدمات التي تؤسس الخطاب الفكري الذي يتبناه أي مؤلف، ولا شك بأن ان الدرس المعرفي الحديث في مجال صناعة الأطروحة يؤكد على ضرورة أن تمتلك المقدمة الاستهلالية لأي كتاب

مجموعة من العناصر المعرفية تنقلها من خانة الهامش الى فحوى المتن واعتبارها نصا " مفتاحيا" حسب باختين، إذ أن المؤلف العارف بكتابه يجب أن يكون مدركاً لضرورة أن تكون مقدمته مجموعة من المقتربات الفعالة التي تشير الى تحتيات النص الرئيسية" حسب فوكو" وفي هذه المحاولة البسيطة والنادرة في عين الوقت نحاول أن نقدم تفحصا أوليا لنص يبدو منذ الوهلة الأولى أنه لا يريد أن يكون مقدمة عابرة ليس الا؛ بل عملية تسطير فعالة وتدوين تاريخي يطمح الى أن يسير بتصورات القارئ الى الأمام منذ البداية. (٢٩) وينجح في تأثيث البحث بما يحقق نجاحه من خطوات محسوبة. (٣٠)

إن قراءة دقيقة لمقدمة الكتاب ومتنه تكشف طبيعة العلاقة الجدلية بينهما ولعل عمق البحث لا يبلغ مداه من دون الاشارة الى الطبيعة التي تربط التاريخ بعلم الاجتماع إذ أن من المسلم به هو أن التاريخ ما هو الا ترجمة سردية وتوثيق لعملية التطور الجدلي للمجتمعات والشعوب يقدم على رصد الأحداث والمتغيرات الاجتماعية التي تنتج بدورها عن حركة ذلك المجتمع، ولعل مصداقية وعمق البحث التاريخي تزداد كلما اقترب ذلك البحث آخذا المنحى الاجتماعي وهذا ما جاءت الدراسات الخلدونية لتأكيده، فالعلاقة إذن علاقة جوهرية وثيقة الصلة والترابط بين كلا الموضوعين حيث أكد الدكتور ناصيف نمار هذا المبدأ بقوله:

" اذا كان التاريخ الحقيقي هو التاريخ الاجتماعي، واذا كانت قيمة كتابة تاريخية معينة تعظم بقدر ما تقترب من نموذج الكتابة التاريخية الاجتماعية، أو بقدر ما تشتمل على مضمون اجتماعي؛ وجب الاهتمام جدياً بالمفاهيم والأحكام والنظريات الاجتماعية التي تنطوي عليها تلك الكتابة التاريخية في سبيل اظهار قيمتها الحقيقية. (٣١) الأمر الذي أولاه الدوري عنايته وخلاصة فكره. ويأتي تعريف المنهج الإجتماعي بأنه المنهج الذي يستهدف النص ذاته باعتباره المكان الذي يتدخل فيه ويظهره بطابع إجتماعي، فأولى علامات هذا النص بوصفه واقعة أن يبين الصلة بينه وبين المجتمع الذي نشأ فيه، وثمة من يذهب الى أن المنهج الإجتماعي ولد في أحضان المنهج التاريخي. (٣٢)

وإذا كان ثمة من يذهب الى أن أصل الاجتماع والصراع الانساني هما أمران فطريان، وقد عاش الناس هاتين الصفتين في حياتهم اليومية، ثم أتى الدين بقيمه الاخلاقية السامية وضوابطه لإقامة التوازن بين هاتين الخاصتين في الحياة الانسانية، وأن الأصل في الدين هو جذب موارد الخلاف نحو مدار الائتلاف. ففي الوقت الذي يعترف الدين بأحقية الاختلاف بين البشر، فانه يسعى الى ضبط هذا الاختلاف وتحديد أطره بحيث لا يتحول الى خلاف وصراع دامي (٣٣) وذلك بربطه مسار

الاختلاف، بوحدة الانتماء الى المصدر والمبدأ الاساس وهو الله، كما ان الاختلاف في الامور الدنيوية أمر طبيعي، والصراع في المجتمع الانساني قد تمّ تنظيمه وضبطه من خلال القانون الوضعي، الذي أقيم خصيصاً لهذه الغاية، تأتي الشرائع السماوية عبارة عن قوانين لضبط الصراعات، سواء أكانت في صراع الانسان مع نفسه، (٣٤) أو صراعه مع الآخر.

كان الدوري يقف قارئاً لبعض الآراء المتحمسة حول الاسماعيلية فهو يعرضها على النحو الآتي:

" أما ايفانوف فيستنتج من دراسته لكتب الاسماعيلية(ولا شك في أنه يتحمس في الدفاع عن المذهب) بأن المذهب الاسماعيلي أثاره وغذاه شعور ديني عميق وأنه أدق المذاهب توحيداً، وأن غايته المثلى هي الانتصار للدين الاسلامي والتوحيد النهائي للبشر في ظل امام عادل واحد من آل الرسول" ص " فهو وحده القادر على هداية الانسانية المعذبة الى حياة هادئة صحيحة" بعد عرض هذا الرأي ينبري الدوري الى مناقشته ملمحاً الى الجوانب الاجتماعية من خلال قوله:

" أما أنا فأرى أن المذهب الاسماعيلي كان يستهدف قبل كل شيء احداث ثورة اجتماعية ويرى في الدين الاسلامي أساساً للنظام للقائم، فحاول بطريقة التأويل والتنشيء توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان في جو من التعاون والحرية الفكرية لتقويض المجتمع واقامة مجتمع آخر لا استغلال فيه ولا تحكم دين أو عنصر" (٣٥) قراءة الدوري تنطوي على عدد من العناصر في آن، فهي تشير الى ما هو سياسي واقتصادي وديني معاً من خلال جملة من التفوهات الصريحة، على نحو" إن المذهب الاسماعيلي كان يستهدف قبل كل شيء احداث ثورة اجتماعية، وهنا يشير الى الجانب الاجتماعي الذي أعياه القهر، ويرى في الدين الاسلامي أساساً للنظام للقائم، ليجمع هنا بين الدين والسياسة الحكيمة، فحاول بطريقة التأويل والتنشيء توحيد المتذمرين من كل العناصر والأديان في جو من التعاون والحرية الفكرية لتقويض المجتمع واقامة مجتمع آخر لا استغلال فيه ولا تحكم" وبذلك يرفع الدوري الغطاء عن المسكوت عنه في هذا الثالوث، أي السياسي والاقتصادي والاجتماعي من خلال البعد الديني الجامع الذي غالباً ما يعمل على توحيد المتذمرين للقيام بالثورات أو اقامة العدالة المجتمعية المفقودة التي تعد السبب الرئيس للتذمر نفسه وقيام الثورات في آن معاً. وبذلك لا يتناول الدوري الوقائع التاريخية من منظور واحد ضيق ينور بفهم تلك الوقائع، ويعجز عن اعطاء تصور علمي شامل لها كما يفعل الآخرون، وعندي أن سبب آراء الدوري هذه ظهوره في حقبة زمنية

تتوافر على حد معقول من حرية التعبير والتفكير، فضلاً عن مزامنته لحركات التحرر العربي، وعودة الانسان العربي الى قراءة تاريخه ونقده بعيداً عن التحيز والتحامل.

وتأسيساً على ما مرّ يمكن الانتباه الى أن الدكتور عبد العزيز الدوري لا يسلم بمقولات المؤرخين تسليم التابع، فهو يشك في كثير مما يروى عن الاسماعيلية ويعيده الى دائرة التمحيص والقراءة ولو كان على نحو اشارة تستلزم الوقوف واجالة النظر كما في قوله"

" يتضح لنا أن جمهور مؤرخي السنة اتهموا الاسماعيلية بأنهم كانوا يريدون سلخ الناس عن المذاهب والأديان ليتركوا لهم الخيار في اتباع أي مذهب وخاصة المذاهب الفلسفية والمجوسية بروح يصحبها التسامح الديني المطلق، وقد صرح ابن النديم بعدم اطمئنانه الى معلوماته بعد أن استقاها من ابن رام، (٣٦) بينما اعترف ابن الجوزي بأنه أخذ معلوماته عن الاسماعيلية من أقوام تدينوا بدينهم ثم بانت لهم قبائحهم فتركوا مذهبهم، (٣٧) وهذا يدعو الى الشك. (٣٨) وهكذا يحلل الدوري الآراء التي قيلت في الاسماعيلية بالنظر لعلاقة الجانب الديني بالجوانب الاجتماعية وما يتبعها من عدالة أو ظلم واضطهاد، وما تحول عامة الناس من مذهب الى آخر ومعتقد الى سواه الا توقاً للعدالة والحرية والعيش الكريم وهو المبدأ التي تسعى الأديان السماوية الى اشاعته بين المجتمعات البشرية كلها.

النتائج.

_ حظي التاريخ وواقعه بدراسات كثيرة، وها نحن نقف على واحد من المفكرين الأفذاذ الذي درس حقبة مهمة تمثلت في العصور العباسية المتأخرة.

_ وعلى الرغم من أن الكتاب عبارة" دراسات" في العصور اياها لكنه انطوى على منهجية استطاعت ربط دراسات الكتاب ونظمتها عن طريق عقلية توخت الاقتراب من الحقيقة التاريخية قدر الامكان.

_ اقتضت منهجية الكتاب أن يقدم له بمقدمة وافية أعطت تصورات عميقة عن طبيعة الكتاب وجوهر التناول فيه، وعمق العقلية التي أنجزتها.

_ تنوعت زوايا نظر الدوري في الدراسات، فقد وقف على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية ولم يعن بوضع دون سواه، وكان ذلك ديدنه في متن الكتاب كله.

_ عرض الدوري لعديد من الآراء ثم انبرى الى تحليلها وقراءتها وابداء الآراء فيها ولم يكتف بنقل الواقعة التاريخية من مصادرها وحسب.

_ وبذلك فقد ترك الدكتور عبد العزيز الدوري_ في مؤلفه قيد البحث ومؤلفاته الأخر_ منهجاً خاصاً به يمكن أن يتبع ويحتذى به من لدن الدارسين والباحثين بالنظر لما يتمتع به من جرأة ودقة في التحليل والتوصلات الأمر الذي جعل منه مرجعاً في هذا الضرب من الدراسات.

المصادر.

_القرآن الكريم.

_ ابن الاثير، ابو الحسن علي بن ابى الكرم(ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ– ١،القاهره،١٩٨٧.

_ الأربلي، علي بن عيسى(ت ١٣٤٥هـ) خلاصة الذهب المسبوك، مطبعة الأرثوذكسي القدسي، ١٨٨٥ .

_ بول، فيبين، أزمة المعرفة التاريخية – فوكو وثورة في المنهج. ترجمة: ابراهيم فتحي. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣.

_ المودودي ، أبو الأعلى، نحن والحضارة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٧.

_ امير ، علي ، مختصر تاريخ العرب، بلا ط، بلا ت .

_ ابن عبد الظاهر، الدين(ت٦٩٢ هـ) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح مراد كامل، مراجعة محمد علي النجار، القاهرة، ١٩٦٠.

_ ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي،(ت ٥٩٧هـ) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، حيدر آباد الدين، ١٣٥٧، .

_ ابن الطقطقى، محمد بن علي طباطبا(ت ٣٣١هـ) الغزي في الآداب السلطانية، القاهرة، ١٣١٧هـ .

_ ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب اسحاق(ت٣٨٥هـ)، الفهرست، تح يوسف علي الطويل، ط٢ ، بيروت، دار الكتب العالية، ١٤٢٢هـ.

_ ايفانون، مذكرات عن حركة المهدي الفاطي، نصوص اسماعيلية، مؤلف مجهول، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، المجلد الرابع، ١٩٣٩.

_ جان بيار فرانيير، كيف تنجح في كتابة بحثك، ترجمة وتحقيق: هيثم اللمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠.

_ الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة، ١٩٤٥.

_ الدوري، عبد العزيز لقاء أجراه الاعلامي اللبناني سامي كليب على قناة الميادين.

_ الدوري، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٦٩.

_ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ) تاريخ الخلفاء، بلا ط، القاهرة، ١٣٥١هـ.

_ شافه الباحث بهذه الفكرة أ. د. عبد العظيم السلطاني.

_ الطبري، محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، المطبعة الحسينية القاهرة، بلا ت.

_ عبد العزيز الدوري إنساناً ومؤرخاً ومفكراً، جمع وتحرير د. أحسان عباس، منتدى عبد الحميد شومان، ٢٠١٠ .

_ فاروق، عمر فوزي وآخرون، موسوعة حضارة العراق (مشترك)، عن موسوعة اعلام العراق .

_ ناصيف، نمار، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، نقلاً عن المنهج وقضاياه الجدلية، وليد قصاب، دار الفكر، دمشق.

_ المسعودي، ابو الحسن بن الحسين (ت٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر،

_ المسعودي، ابو الحسن بن الحسين (ت٣٤٦هـ)، التنبيه والاشراف، بلا ط، مكتبة الخياط، بيروت، ١٩٦٥.

_ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب(ت ٢٨٤هـ، تاريخ السنوى، قدم وعلق عليه محمد صادق بحر العلوم، النجف الأشرف، ١٩٦٤ .

_.Noldeke: sketches from estern historg. Transl. by I.s Black London 1892_p158

_ وليد، قصاب، المنهج وقضاياه الجدلية، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧.

الهوامش.

١ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة، شركة الرابطة للطبع والنشر المحدودة، ١٩٤٥ : ٩_ ٢٢.

٢ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات: ٢٢_ ٢٧ .

٣ _ شافه الباحث بهذه الفكرة أ. د. عبد العظيم السلطاني.

٤ _ الدوري، عبد العزيز لقاء أجراه الاعلامي اللبناني سامي كليب على قناة الميادين.

٥ _عبدالعزيزالدوري إنساناً ومؤرخاً ومفكراً،جمع وتحريرد.أحسان عباس،منتدى عبد الحميد شومان،٢٠١٠: ٢٧_ ٢٩

٦ _ فاروق،عمر فوزي وآخرون، موسوعة حضارة العراق (مشترك)،عن موسوعة اعلام العراق في ق٢٠ج١: ١٥٦.

٧ _ أحسان، عباس، عبد العزيز الدوري إنساناً ومؤرخاً ومفكراً: ٣٥_ ٣٣ .

٨ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات : ٣٤_ ٤٠ .

٩ _ آيد، علي، مختصر تاريخ العرب، بلا ط، بلا ت: ٢٤٥ _ ٢٤٦ .

١٠ _ المسعودي، ابو الحسن بن الحسين (ت٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ط٣، القاهرة، ١٩٣٨،ج١: ٤٣

١١ _ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب(ت ٢٨٤هـ، تاريخ السنوى، قدم وعلق عليه محمد صادق بحر العلوم، النجف الأشرف، ١٩٦٤، ج٣ : ١٠٧ .

١٢ _ المسعودي،ابو الحسن بن الحسين (ت٣٤٦هـ)، التنبيه والاشراف، بلا ط،مكتبة الخياط، بيروت، ١٩٦٥: ٣١٣

١٣ _ الطبري، محمد بن جرير(ت ٣١٠هـ)، تاريخ الرسل والملوك، المطبعة الحسينية القاهرة، بلا ت: ج١١ : ١٨ .

١٤ _ الأربلي، علي بن عيسى(ت ١٣٤٥هـ) خلاصة الذهب المسبوك، مطبعة الأرثودكسي القدسي، ١٨٨٥: ١٦٣ .ابن الطقطقى، محمد بن علي طباطبا(ت ٣٣١هـ) الغزي في الآداب السلطانية، القاهرة، ١٣١٧هـ: ٢١٥ .ابن الاثير، ابو الحسن علي بن ابى الكرم(ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ– ١،القاهره،١٩٨٧ ج ٧: ٢١.

١٥ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات: ٧٨ _ ٨٨ .

الدوري، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت، ١٩٦٩: ٣٠_ ٤١ .

١٦ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي: ٧٧_ ٨٠ .

١٧ _ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج١١: ١٧٦_ ١٧٧.

_Noldeke: sketches from estern historg. Transl. by l.s Black London 1892_p158.

١٨_ الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، ج١١: ٢٨٨ .

Noldeke: p161

١٩ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ٩١_ ١٠٠.

٢٠ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري: ٦٦_ ٧٧ .

٢١ _ الدوري، عبد العزيز، دراسات في تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري: ٧٧_ ٨٠ .

البستاني، بطرس، دائرة المعارف الاسلامية،، مج٤ ، ١٢١٢ ،

٢٢ _ الطبري١١، تاريخ الرسل والملوك، ج١١ : ١٧٧ .

٢٣ _الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ج١١ : ١٧٦ .

_ Noldeke. P149 . 184.

٢٤ _ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١١: ١٥٦_ ١٧٨ .

_ Noldeke .p150 _ 152.

٢٥ _ التوبة، ١١١. المسعودي، مروج الذهب، ج٤: ١٣٥ .

٢٦ _ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١١ : ٢١٨ .ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي،(ت ٥٩٧هـ) المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، حيدر آباد الدين، ١٣٥٧، ج٥: ٨_ ١٤ .

٢٧ _ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج١١: ٢٢٥. المسعودي، مروج الذهب، ج٤: ١٣٧. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت ٩١١هـ) تاريخ الخلفاء، بلا ط، القاهرة، ١٣٥١هـ: ٩١_ ٩٢ .

٢٨ _ الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ١٠٥. دراسات بول فيبين، أزمة المعرفة التاريخية – فوكو وثورة في المنهج. ترجمة: ابراهيم فتحي. دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣: ١٩ .

٢٩_ وليد، قصاب، المنهج وقضاياه الجدلية، دار الفكر، دمشق، ط١، ٢٠٠٧: ٣٥ .

٣٠_ جان بيار فرانيير، كيف تنجح في كتابة بحثك، ترجمة وتحقيق: هيثم اللمع، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠ : ١٧. ابن عبد الظاهر، الدين(ت ٦٩٢هـ) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح مراد كامل، مرجعة محمد علي النجار، القاهرة ١٩٦١ : ٤٦.

٣١_ ناصيف، نمار، مفهوم الأمة بين الدين والتاريخ، نقلاً عن المنهج وقضاياه الجدلية، وليد قصاب، دار الفكر، دمشق: ٣٥.

٣٢_ بول، فيبين، أزمة المعرفة التاريخية ، ص١٩ .

٣٣_ المودودي، أبو الأعلى، نحن والحضارة، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ١٩٨٧ : ٨٥_ ٨٦.

٣٤_ ابن عبد الظاهر، الدين(ت٦٩٢ هـ) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تح مراد كامل، مراجعة محمد علي النجار، القاهرة، ١٩٦٠: ٤٦.

٣٥_ الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ١٥٥. وينظر نقلاً عن كتاب الدوري نفسه، ايفانون، مذكرات عن حركة المهدي الفاطي، نصوص اسماعيلية، مؤلف مجهول، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، المجلد الرابع، ج٢ ، ١٩٣٩ : ٨٩_ ١٣٥ .

٣٦_ ابن النديم، محمد بن أبي يعقوب اسحاق(ت٣٨٥هـ)، الفهرست، تح يوسف علي الطويل، ط٢ ، بيروت، دار الكتب العالية، ١٤٢٢هـ: ٣٧٦ .

٣٧_ ابن الجوزي، المنتظم، ج٥ : ١١٧.

٣٨_ الدوري، دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ١٥٤ .